

بدينا القرابية

د. عمر العماس

بدأت الدراسة، وكان المستعمر يصول ويجول بأرض الوطن، وكم كانت المسافات متباعدة، ما بين الخواجة، والمعلم، والمتعلم، والمزارع. معلم واحد، لفصل واحد، يمثل مدرسة، منسوبة لاسم القرية التي أقيمت فيها، وكان المقرر الدراسي عبارة عن أربع مواد دراسية هي الدين (التربية الإسلامية)، والعربي (اللغة العربية)، والحساب (الرياضيات)، والفنون (التربية الفنية).

المواد الثلاثة الأولى مواد أساسية، ينبغي أن يتعلمها التلاميذ، فهي ضرورية، وذات فائدة ملموسة، وتمثل قاعدة تعلم مستقبلي للتلاميذ ولأسرهم، أما مادة الفنون فكان نشاطها ينصب في الرسم على ألواح الأردواز، وقد برع بعض من التلاميذ، ممن يرسمون شجرة السيال بساق مائلة، (ليس كما يرسمها التلاميذ الآخريين بطريقة قائمة) أمثال التلميذ، الصديق المبارك جار النبي (أكبر التلاميذ سنًا)، الذي نالت رسوماته رضا المعلم (الناظر، أحمد الطيب)، والذي أشاد بها كثيراً، فتعلمنا من بعد ذلك كيف نرسم سيقان الأشجار، والتي لا تتشابه وأعمدة التلفون، بأية حال من الأحوال.

شملت الفنون أعمال الطين، التي يجسد التلاميذ من خلالها، ما هو موجود ومألوف بالبيئة المحيطة بمجتمع المدرسة، من الأبقار، والجمال، والماعز، والكلاب، وحيوانات آخر عديدة. كما تشمل أعمال الطين، الصناعات المختلفة، التي يلاحظها التلميذ في حياته، محدودة المسافات، فكان يصنع الأواني الفخارية المختلفة، صغيرة الحجم، التي تحاكي الأواني الكبيرة، مثل الأزيار بأنواعها المختلفة، والأباريق، والمصنوعات الخزفية الأخرى، المستعملة في المنزل، أو في أي موقع آخر شهده التلميذ في مجتمعه. كما شملت بناء المنازل، مثل: المربعة، والدردر، والقطية، وبعض تشكيلات مباني المدن المختلفة، لمن أتت لهم السفر إليها.

يقوم المعلم الأوحده (معلم الصف)، الذي يمثل ناظر المدرسة (إن كان بالمدرسة صف واحد)، بتدريس المقرر الدراسي كاملاً (مواد منفصلة)، فيا لها من

مهمة قاسية، وتكرار ممل يمتد لعام دراسي كامل. لا يرى المعلم خلاله، ولا نرى نحن المتعلمين خلاله، من أدوات الدراسة، سوى لوح الأردواز، الذي كان يمثل الكتاب، والكراسة، والمرجع (أحياناً).

لوح الأردواز، عبارة عن لوح من الأسمنت المقوى الصلب، الذي تبلغ مساحته، في اغلب الأنواع، حوالي (40×60)سم، يميل لونه للسواد قليلاً، يتحمل الصدام، والرمي على الأرض من أعلى، ولا ينكسر بسهولة. يستخدم قلم رفيع مصنوع أيضاً من الأردواز، يشبه ذلك الأنبوب الموجود بداخل قلم الحبر الجاف (pig)، فهو قلم صلب في شكل المسمار الحديدي مقياس 4 بوصة، من غير الجانب المسطح، شكلاً وطولاً ومن ميزاته أنه:

- عند استخدامه في الكتابة، وبمجرد رسم الحرف أو الكلمة، أو الشكل، المراد كتابته، يُظهر لونا أبيضاً واضحاً، يمكّن القارئ من معرفة الحرف، أو الكلمة، أو الشكل الذي كتب عليه.

- يمكن مسح الكتابة، فور الانتهاء من الغرض الذي كتبت من أجله، عن طريق اليد، أو أي قطعة قماش متوفرة.

- لا يبقى أي أثر على اللوح بعد المسح.

كنا نكتب عليه، ونعرض ما كتبناه على معلمنا، الذي يتفحصه ويقوم بتصحيحه، وكذلك الأمر في الامتحانات، والاختبارات، وحل المسائل الحسابية. وفي نهاية المطاف، نمسح ما كتب على اللوح، ونقوم بجمعه، أي نضعه في كومة واحدة، وننصرف إلى منازلنا، لا نحمل معنا ما نستذكر فيه، إلا ما قد علق بأذهاننا من معلومات.

نعود في اليوم التالي للمدرسة، لا نحمل شيئاً من المعينات، أو أدوات الدراسة، إلا حواسننا الخمسة، و ما كنا قد حفظناه عن ظهر قلب، في يومنا الماضي. كنا نحفظ القرآن، والأناشيد، والقصص، والمسائل الحسابية، حفظاً بارعاً ومنتقناً، كما كنا نقوم بتلحين الأناشيد، وتسميع الآيات القرآنية، في وقتها داخل الفصل، ونقوم أيضاً بتمثيل بعض المواقف، التي تتناولها القصص، التي تسرد على مسامعنا سرداً، وليس اطلاعاً، لعدم وجود أي أثرٍ للكتب أو المخطوطات